الفصل الحادي عشر

الخيرُ والشّرُّ

obeikandl.com

obeikandl.com

الخـيرُ والشّــرُّ

لقد وجد الإنسان نفسه منذ الوهلة الأولى أمام حياة في غاية التعقيد، وسيرحل عنها قبل أن يعلم عن نسبة قليلة جدًّا من أسرارها وعجائبها الهائلة، لقد وجد فيها وجد فيها (خيرًا) يبحث عنه بكل وسيلة، و(شرًّا) يتحاشاه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأدرك أنهما متداخلان إلى درجة قد يتلاشى فيها التفريق بينهما في أقصى حدود التصور عند بعض المفكرين، ولم يكن مصطلحا الخير والشر بمنأى عن نقاش متواصل عبر التاريخ، فقد اختلف الناس في تعريفهما، فمنهم من عرف الشر بأنه مجرد غياب الخير، أي عرفه تعريفًا سلبيًّا، لكن هذا يقتضي أن الشر لا شيء، وهذا محال مع وجود الألم والنفور والضيق والشر العرفي، ويعتقد أمثال (هيرقليطس)[1] أنهما نسبيان، فما لم يكن خيرًا يصبح شرًّا والعكس صحيح، ومنهم من قال: إننا نسمي الشر لكل شي نكرهه، وأما (سبينوزا) ومن يوافقه في الاعتقاد فيرون أن الشيء الواحد يمكن أن يكون خيرًا أو شرًّا في الوقت نفسه، ومنهم من قال: إن الشر راجع إلى حرية الإرادة في الإنسان؛ لأن الله ترك الإنسان يفعل ما يشاء في عالمه الصغير كما يراه (ليبنتز)، ومنهم من قال: إن الإنسان يسمي الخير لكل ما يلائمه ويحبه، ويصف بالشر كل ما لا يسره ويكرهه (هوبز)، وأما الفيلسوف المتشائم (شوبنهور) فقد بنى فلسفته أصلًا على أن العالم كله شر محض، وأكبر شر عند الإنسان هو وجوده! ويرى (أوغسطين) أن الشر نوعان: شر أخلاقي، وشر فيزيائي، وينفي أن يكون الشر الأخلاقي من صنع الله، بل هو من صنع الإنسان، وأما الشر الفيزيائي فهذا من وجهة نظره عدالة إلهية تقع بعقوبة الإنسان عن خطيئته الأولى[2]، ويرى (توماس أكويناس) أنه لا يوجد شيء يمكن أن يكون بذاته

---

(١) هيرقليطس Heraclitus (٥٣٥ق. م- ٤٧٥ق. م) أحد أشهر فلاسفة اليونان القدماء يعرف بالفيلسوف الباكي؛ لكثرة بكائه على حماقات الإنسان يرى أن أصل الكون هو النار! تقوم فلسفته على وحدة الأضداد فالخير والشر عنده واحد وكذا الحياة والموت والشباب والهرم يَعدّها مراحل متقلبة لشيء واحد: (أشهر فلاسفة التاريخ، كامل، ص٢٨).

(٢) عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، (١٩٨٤م)، الجزء الثالث، ص١٨٧- ١٨٩.

شرًّا فقد ثبت أن كل موجود بما هو موجود عليه هو خير، وأن الشر ليس إلا موجودًا بالخير، كأنه موجود في كيانه الذاتي[1].

أما الفيلسوف (سبنسر) فيقول: إن الإنسان متوحش مطبوع على الشر وسوء الخلق، وإنه يمكن تصحيح ذلك بالتربية الحسنة، بينما يرى (جان جاك روسو) أن الإنسان خيري بطبعه، أما (أفلاطون) فيعتقد أن جميع المعقولات تستمد من الخير الأعلى وجودها وماهيتها، وأن الخير الأعلى أساس العلم والحقيقة ومع جمال كل من المعرفة والحقيقة، إلا أن صورة الخير الأعلى تمتاز عليهما، وتفوقهما جمالًا. ويرى (دانتي)[2] أن الاتجاه الطبيعي للإنسان يجب أن يكون نحو الخير، بينما غريزته تدفعه نحو الشر؛ لذا أمكن جزاؤه على الخير وحسابه على الشر.

ومن الطبيعي أن تتفاوت أفهام الناس في نظرتها للخير والشر قديمًا وحديثًا، ولكن من تأمل حياته بموضوعية وسبر غور ما حوله من أحداث وأقدار، فإنه لن يجد فيها شرًّا محضًا ولا خيرًا محضًا، والإنسان بطبيعته يجزع من الشر، وينفر منه، ومن ثم، فهو يوليه اهتمامًا أكثر لدفعه عنه، واختلاف المفكرين حول دور الإنسان في وجود الشر أظهر كل الاحتمالات، فمنهم من قال: إن الإنسان شرير بطبيعته، ومنهم من قال: إن الإنسان خيري بطبعه، واتجاه ثالث يرى أن الإنسان به جانبا الخير والشر معًا، وهو ما يوافق مفهوم الوحي الذي رتب على الخير حسنات، وعلى الشر سيئات، وعلى هذا الأساس جاء التكليف والمحاسبة عليه فيما يكون للإنسان فيه حرية الاختيار المطلق بعد أن تبين له: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وعلى الرغم من هذا التفاوت الواضح حول تعريف الخير والشر إلا أنه يبقى قضية حاضرة جدًّا في كل فكر وحضارة، وقد بلغ اهتمام الأديان القديمة بفلسفة الخير والشر

---

(١) الخلاصة اللاهوتية الكتاب الأول المسألة ٤١ مادة ٣. (نقلاً عن موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثالث، ص١٨٩).

(٢) دانتي أليغييري Dante Alighieri (١٢٦٥- ١٣٢١م) الموافق (٦٦٣- ٧٢١هـ) شاعر إيطالي اشتهر باسم (دانتي) ومن أعظم أعماله (الكوميديا الإلهية) التي تتكون من ثلاثة أشياء: الجحيم والمطهر والفردوس يطلق عليه الشاعر الأعلى؛ لأثره في انتقال أوروبا إلى عصر النهضة:

(Encyclopaedia Britannica-Dante Alighieri , Ricardo Quinones).

أن ربطت كلًّا منهما بآلهة مختصة به! فهناك ما يسمى بآلهة الخير وآلهة الشر، فالمصريون القدماء جعلوا من (سخمت) آلهة للشر، بينما (آهورمن) هو آلهة الشر عند المجوس الذين يعتقدون أن هذه الآلهة موجودة بذواتها، وتفعل الشر، فكانوا يسترضونها بتقديم القرابين التي لم تقتصر على ذبح الحيوانات، بل حتى الأطفال والرجال بهدف اتقاء شرها[1]، وهذا غاية الانتكاسة الفطرية للإنسان، وسبحان من أنزل على رسوله الأمي الذي لا علم له بهذه الحضارات القديمة خبر هذه الإشكالية السوداوية، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] حسبنا الله عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.

والخط الفاصل بين الخير والشر من منظور الإنسان يصعب تحديده، وقد يختفي تمامًا، فالخير المحض من زاوية من زوايا هذا الوجود، يمكن أن يكون كله شرًّا محضًا من زاوية أخرى، وكلاهما خير قدري في الوجود بعمومه، فالسمكة الكبيرة تبحث عن فريستها، فإذا ما قابلت سمكة صغيرة فرحت بها، والتهمتها، وبدأت تلاعب أمواج البحر فرحًا بالوليمة الدسمة (الخير) الذي استمتعت به غاية المتعة، بينما الحدث من منظور تلك السمكة الصغيرة ما هو إلا خطر عظيم، إذ داهمها (الشر)، فحاولت تفاديه حتى وقعت بين فكي تلك السمكة الكبيرة، فمزقت جسدها إربًا إربا، فالحدث من منظور السمكة الكبيرة خير محض، ومن السمكة الصغيرة شر محض، ومن منظور من يتأمل أسرار هذا الوجود، هو تكامل طبيعي لا يتم توازن الوجود إلا به، فالسمك الكبير قليل العدد نسبيًّا، ويحتاج إلى أن يتغذى على السمك الصغير الكثير جدًّا؛ لكي يبقى النوعان، ولو لم يفعل ذلك لانقرض السمك الكبير، ولو ترك السمك الصغير يتوالد بعيدًا عن (تقليم) الأسماك الكبيرة له لربما ملأ مياه البحر عددًا وتعفن، فتوالده بكثرة يحقق هدفين: يحافظ على بقاء نوعه، ويوفر غذاء للسمك الكبير كي يحفظ هو الآخر بقاءه.

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثالث، ص١٨٦.

وكذلك الحال مع الإنسان نفسه، يصل به الأمر أحيانًا أن يقوم بالقضاء على عضو من أعضائه، فيقطع رجله أو يده (من الغرغرينا) ليهلك ذلك العضو تمامًا، فيوقع به (الشر) المنهي لوجوده؛ تطلعًا إلى السلامة و(الخير) المبقي للجسم كله، وهكذا يصبح الخير والشر متمايزين في أطراف الوجود وتفاصيل الموجودات، ولكنهما في النهاية خير في عموم الوجود كله، فما يؤلم من جهة قد يسر من جهات عدة، وطالما أن الإنسان لا يمكن له أن يقترب من مركز التحكم القدري للوجود، فالأفضل له أن يعيش عمره مسترخيًا متقبلًا لما يحدث حوله، مستمتعًا بكل (خير) قريب منه، صابرًا محتسبًا على كل (شر) يصيبه، موقنًا أن العاقبة في النهاية إلى خير عام سينكشف له عاجلًا أم آجلًا، وليعلم أنه في كل أحواله تحت عناية مالك الملك ﷻ ورعايته.

أما اختلاف الناس منذ القدم في تعريف الخير والشر وتحديد مفاهيمهما، فهو طبيعي كاختلافهم في أي قضية قدرية أو غيبية أو كونية متعلقة بالله الخالق، وليس غريبًا أن يحدث الاختلاف بين الخلق حول التعريف ونحوه، ولكن الغريب عندما يحاول المخلوق التمادي على مقام الخالق الذي يبلو بالشر والخير في ملكه الكامل، يتحدث المخلوق عنهما من حيث الوجود أصلًا في الكون، وكأنهم يختلفون مع الخالق على شيء يقدرون عليه، أو شيء يمكن أن يكون محل مزاحمة أو منافسة بينهم وبينه، أي يتصورون أن الخلاف بين طرفين متكافئين متقاربين، فجعلوا من هذه القضية قضية جدل ومحاولة استحواذ وسيطرة، كما يتنافس شخصان أو حضارتان أو ملكان من ملوك البشر، بينما الأمر في حق الخالق مختلف تمامًا، فالأمر كله لله وحده، فلا تكافؤَ ولا تساويَ ولا شريكَ ولا ندَّ ولا شبيهَ له سبحانه.

تبقى أقدار الخير والشر أكبر من سعة عقل الإنسان ومجال تفكيره المحدود، ويبقى الإنسان ضعيفًا أمام مقام مالك الملك سبحانه الذي حكم بحكمه الذي لا معقب له بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. فقَدَرُ وجود الخير والشر أساسًا هو من شأن الله وحده لا شريك له، وهو أكبر من أن نخضعه لتصوراتنا وخيالاتنا القاصرة.

*****

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[الأنبياء: ٣٥]

إننا نؤمن بربنا العظيم الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وإنه الإله الواحد الأحد العظيم الصمد الذي خلق الخلق، وقدر الأقدار، وأنزل المقادير، وخلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار اختيارًا لا معقب له من خلقه، ومن ذلك تقدير الخير والشر ابتلاء، وهو الذي يخلق، ولا يسأل عما يفعل، ويجب ضرورة أن يكون كذلك لمقامه الأعلى والأكبر والأقدر والأبقى، إذ لو كان يُسأل عما يفعل لما كان ربًّا يرجى، ويخشى، ويوحي إلى خلقه الذين هم دونه في كل شيء، لدرجة لا ترد معها أي مقارنة تحت أي ظرف، وتعالى الله أن يكون له ند أو شبيه أو منافس في ملكه، بل الملك كله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فما بال هذا الإنسان الضعيف يرتقي مرتقى لم يخلق له، مجادلًا في تفصيل الخير والشر بغيرعلم، يقسمها، ويقررهما، ويدعي التصرف والتأويل وكأنه صاحب شأن أعلى وهو ذلك الإنسان الهلوع الذي: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠- ٢١] وإننا لنخجل أن نفكر مجرد التفكير بهذه المقارنة، ولو تنزلًا بمقام الذي قدر، واختار، وقال بكل قوة وهيمنة واقتدار: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وإنك لتعجب من حال أولئك الذين يعلمون أن مآلهم إلى ربهم قدرًا دون اختيار منهم، فيجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، مكابرين دون أن يبادروا في اليقظة من هذا السبات، ويصحون من هذه السكرة، فيستعدون لتلك الرجعى المخيفة، التي نُيَمِّمُ وجوهنا شطرها أجمعين، لا يتخلف منا أحد لا بطوعنا واختيارنا ولا رغبتنا، وإنما القدر الذي لا مناص منه، والذي لا طاقة للمخلوق برده أو صرفه أو الهروب منه: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥].

لا يقف ظلم الإنسان وجهله عند جدلية الخير والشر فحسب، بل يتجاوزها في جميع القضايا الجدلية طيلة تاريخه، كم كان الإنسان ظلومًا في حق من أوجده جهولًا في جداله ومكابرته في قضايا أكبر منه، وليس أشر على الإنسان من أن يخرج من دنياه

الفانية هذه كلمح البصر بخسارته لأخراه الباقية، أما آن لنا أن نتأدب مع الله ﷻ، ونحن نقتحم تلك القضايا القدرية الكبرى التي هي أكبر منا، بل أكبر مما هو أكبر منا من الخلق أجمعين، والإنسان مهما كابر فهو مجرد عبد لله ضعيف إليه فقير إليه، يتضرع إلى الله بسؤال الخير، ويستغيث به لينجيه من الشر، ولا يملك سوى ذلك.

يجب أن نستحضر هذه الحقيقة دائمًا عندما نتذكر أقدار الخير والشر، لأهميتها في كل ما يعترض لنا من شبهات وجودية وكونية، ولنقدم إيماننا واستشعار عظمة الخالق هذه قبل الخوض في تفصيل مضامينهما، وكذلك الأمر مع كل قضية غيبية كأصلهما، وحقيقة الجنة والنار، والقيامة، وخلق إبليس، والملائكة، وغيرها، مما هي أصلًا مشيئة عظمى، وإرادة كبرى لله وحده نصغر ومن ثم بإيماننا نتصاغر أمامها، نتأدب كل الأدب مع الله؛ لأنه هو الملك الحق لا إله إلا هو ولا ند له سبحانه في ملكه، وهو المالك المتصرف يخلق ما يشاء ويختار، ولا نختار دونه، ولقد اختار أن خلقنا، وخلق معنا كل شيء ومن ذلك نواميس الخير والشر، فأين أدبنا معه سبحانه؟ لقد أثبت القرآن للجن أدبًا مع الله عند ذكرهم للشر على الرغم من أنهم يؤمنون بأن الله خالق كل شيء، فقالوا تأدبًا معه: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] ومن قبلهم نسب خليل الله إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وهذا الحبيب ﷺ أيضًا يقولها في دعائه لله متأدبًا معه: «**والشر ليس إليك**»(١).

*****

نسبية الخير والشر

الخير والشر موجودان في عالم الوجود بقدر الخالق ومشيئته سبحانه ولا عبرة لمن ينفي أحدهما، ويثبت الآخر، وللشر فلسفة ومنطق خاص تجعل إحساس الإنسان

(١) الحديث رقم (٧٧١) من صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاةِ قال: «﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] إلى أن قال: «**والشرُّ ليس إليك**».

به انعكاسًا من تلك الزاوية النائية التي يقف عليها للحكم على الشيء وفق منظوره الشخصي بأن الأمر شر أم خير، فالخير من زاوية معينة قد يكون شرًّا من زوايا عدة، والشر من زاوية قد يكون خيرًا من زوايا عدة، يحق لمن نظر للأمراض – نظرة مجردة – أن يصفها بالشر المهلك، وكذا الحال لو نظر إلى القتل والفراق والحوادث والإخفاقات، بمعزل عما حولها، بينما هي من ناحية القدر الكوني تأتي ضمن تركيبة خير باطن متوازن متكامل لا بد أن ينتج عنها في النهاية خير ظاهر عام، وإن بدا لنا بعض الأشواك في جنبات طريقه.

لنأخذ على سبيل المثال ظاهرة الموت، الذي يفر منه كل حي، لو لم يمت الإنسان بعد هرمه فما عساك أن تتخيل أسرتك؟! طابور من المخرفين والمخرفات لا تدري أتخدمهم أم تخدم نفسك حتى تهرم مثلهم، وتصطف معهم يومًا، فيأتي من بعدك بأثقل عبئًا منك وهكذا! وكذا الحال مع هزيمة المسلمين في معركتي أحد وحنين في أول الأمر، ولو انتصروا فيهما كبدر والفتح وتبوك لم نجد أمامنا هذه الدروس العظيمة في الإدارة والانضباط وخطورة حب الدنيا والتفريط في ذلك على المستويين السياسي والعسكري، وخطورة عدم الانضباط حتى لو كان القائد هو سيد البشر، فحيثما وجد الخلل اضطرب النصر، بينما الكل سيموت سواء في المعركة أو على الفراش.

وكذلك الحال أيضًا على المستوى العالمي في الحروب العالمية التي لا يمكن أن يصفها عاقل بالخير مطلقًا، بل هي شر مستطير قضى على عشرات الملايين من البشر وبسببها خسر العالم ترليونات الدولارات، ودمرت المصانع والمباني والمزارع والممتلكات والحرث والنسل، لكن انظر إلى التقدم التكنولوجي الهائل الذي سرعته تلك الحرب حينها ليصعد بالعالم الذي عاش بعدها مختصرًا آلاف السنين في سلم الحضارة الإنسانية، ما جعل الناس يتغلبون على الكثير مما يواجههم من عقبات معيشية ونقص في الموارد مع ازدياد عدد سكان الأرض، وسواء وقعت تلك الحروب أم لم تقع، فجميع قتلى الحرب لو لم يموتوا فيها، فإنهم حتمًا سيموتون مثل غيرهم بانتهاء الأجل، ولو عاشوا بعدها لما بقي اليوم منهم أحد على قيد الحياة، وسيفنون عن بكرة أبيهم بالموت الطبيعي، كما مات اليوم جميع الأحياء الذين عاصروهم إبان الحرب، لكنهم تقدموا بموتهم قليلًا ليصبح

العلم بسببهم أكثر تقدمًا، وبقي التقدم العلمي المحفز بالحرب خادمًا للإنسانية فيما بعد وفاتحًا لها أبوابًا من العيش الرغيد، ولولا الحرب العالمية لربما تأخر الإنسان حينًا من الدهر حتى يصل إلى ما وصل إليه من تكنولوجيا في عشرات السنين.

ثم انظر أيضًا إلى تفشي الأوبئة والأمراض ودفعها لكل عالم أن يسهر باحثًا عن دواء ناجع له، وحتى على المستوى الفردي والأحداث والأحزان، لا بد من وقفة تأمل في أفراحنا وأتراحنا، لنفترض أن هناك شابّين محافظين في العشرين من عمرهما، أصيبا في حادث سير، فمات أحدهما على الفور وبقي الآخر، من المألوف أن تبكي أسرة الميت بكاءً شديدًا على فقيدهم، وتفرح أسرة الناجي من الحادث لسلامته، وإلى هنا والأمر طبيعي، وحيث إن الحي لا يأمن الفتنة، فقد يحدث أن ينحرف الحي منهما نحو الكفر وهو الحي بين أهله، وينتظر موتًا ينتظره كل مخلوق وفق أجله المكتوب، فيموت على الكفر، فبالله عليك في هذه الحالة أيهما الميت وأيهما الحي؟ وأيهما الذي سلم من الشر فعلًا وأيهما الذي وقع في الشر كل الشر، لنتذكر قصة الخضر وموسى عليهما السلام عندما قتل الغلام، وأي خير ظاهر في قتل غلام بريء! لكن عندما كشف السر بعد ذلك بأن قتله كان خيرًا له ولوالديه على الرغم من أنه قُتل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠- ٨١].

هذه النظرة الشرعية المتوازنة للخير والشر هي أساس التذكير بالاحتساب والصبر عند المصائب، وتفويض الأمر لله بطيب نفس وصدق توكل عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه؛ لأننا لا ندري أين يكمن الخير والشر الحقيقي، ولذلك كان الحل الوحيد هو تفويض الأمر كله إلى من يعلم ذلك كله، وانطلاقًا من هذه النظرة المعتدلة للخير والشر تستطيع أن تفهم جيدًا حاجتنا إلى التشافي والتداوي من الوحي بشقيه القرآني والنبوي، ابتداءً من هذه الجرعة العلاجية العظيمة التي يجب التذكير بها في كل تعزية ونازلة، والتي تجدها في هذا النص الذي أخبرنا به من لا ينطق عن الهوى، قالها صحيحة صريحة بكل صدق لي ولك، ولمن كانوا قبلنا ولمن سيأتون بعدنا، يقول الرسول ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المؤمنِ إِنَّ أَمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ ليسَ ذلكَ لأَحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إِنْ أَصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ**

خَيرًا لهُ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ»[1]، ثم أتبعها بالجرعة الثانية من الدواء الشافي الذي جاء في وصية نبي الرحمة ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما، عندما قال له: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[2].

بهذا الإيمان والاحتساب والتسليم لله، لن تستمتع بالخير، وتتحمل الشر فحسب، بل سينقلب كل شر إلى خير محض لك مهما كان قاسيًا؛ لأنك ستشعر أن كل شيء قد قدر بحسابه، فتنتظر الجزاء من كليهما، وبعد ذلك تعيش طبيعيًّا في حياتك الدنيا راضيًا بما قسم الله لك من عيش ورزق، صابرًا على ما أصابك من أقدار لا راد لها إلا من قدرها، وحينها لن تأسى على ما فاتك، ولن تطمع بما ليس لك، وستستمتع بما نالك من خير ومعيشة هنية مهما كانت، بقناعة لباسها الرضا والاحتساب والابتسامة الدائمة في الحياة، وستكون طيب النفس ذاكرًا شاكرًا لمن قدر في ملكه كل قدر، وقسم كل رزق، وقال وقوله الحق مؤكدًا أنه ليس لك إلا ما قدر لك: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٢].

*****

(١) الحديث رقم (٣٩٨٠) من صحيح الجامع للألباني عن صهيب بن سنان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر وكان خيرًا لهُ وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له**».

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦) عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني.